# الصيام وحكمته

## أنواع العبادة فى الإسلام:

خلق الله سبحانه الناس ليعرفوه ويعبدوه، قياما بحق ربوبيته، وألوهيته، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لهذا جعل الإسلام التعبد لله تعالى، هو أول ما يطالب به المسلم، وكانت أركان الإسلام، ومبانيه العظام، تتمثل فى عبادات لله تعالى، هى – بعد الشهادتين – إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

وقد نوع الإسلام فى عباداته التى شرعها:

**فمنها**: العبادة التى يؤديها المسلم بجهده البدنى كالصلاة والصيام. وتسمى: العبادة البدنية.

**ومنها**: ما يؤديه بذلا من ماله لله، كالزكاة والصدقات، وتسمى: العبادة المالية.

**ومنها**: ما يجمع بينهما، كالحج والعمرة.

**كما أن منها**: ما يتمثل فى الفعل، كالصلاة والزكاة والحج.

**ومنها**: ما يتمثل فى الترك والكف، وهو الصيام.

على أن هذا الكف والترك ليس أمرًا سلبيا، فإن الذى جعله عبادة هو أن المسلم يقوم بذلك بإرادته واختياره، قاصدا التقرب إلى الله تعالى، فهو بهذا عمل بدنى، ونفسى إيجابى، له ثقله فى ميزان الحق.

## معنى الصيام الشرعى:

فالصيام المأمور به، والمرغب فيه فى القرآن والسنة إنما هو ترك وكف وحرمان، وبعبارة أخرى: إمساك وامتناع عن الاستجابة لما كان مباحا من شهوة البطن، وشهوة الفرج، بنية التقرب إلى الله تعالى.

**فهذا هو الصوم الشرعى**: إمساك وامتناع إرادى عن الطعام والشراب،

ومباشرة النساء وما فى حكمها، خلال يوم كامل: أى من تبين الفجر إلى غروب الشمس، بنية الامتثال والتقرب إلى الله تبارك وتعالى.

والدليل على أن الصيام الشرعى هو الإمساك عن الشهوتين كما ذكرنا، قوله تعالى فى بيان أحكام الصيام فى سورة البقرة: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾ [البقرة: ١٨٧].

فقد بينت هذه الآية الكريمة حقيقة الصيام المأمور به فى الآيات قبلها، وبينت مدته كذلك.

فقد أباحت الآية المباشرة بين الرجال والنساء، أى الأزواج والزوجات، معللة ذلك بقوله: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾، كما أباحت الأكل والشرب كذلك طوال الليل، حتى يتبين الفجر، ثم أمرت بإتمام الصيام من الفجر إلى الليل، ويدخل بغروب الشمس، كما سيأتى.

يؤكد ذلك من الحديث الصحيح: قوله ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل -: «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به يدع طعامه وشهوته من أجلى»(١).

وفى بعض روايات الحديث: «يدع طعامه من أجلى، ويدع شرابه من أجلى، ويدع شهوته من أجلى، ويدع زوجته من أجلى»(٢).

ويبدو أن هذا المعنى للصوم كان معروفا لدى العرب قبل الإسلام، فقد صح أنهم كانوا يصومون عاشوراء فى الجاهلية، تعظيما له، ولهذا لما أمرهم النبى ﷺ

---

(١) متفق عليه، وسيأتى.

(٢) رواه ابن خزيمة فى صحيحه.

بصيام عاشوراء، ثم أمرهم بصيام رمضان كما فى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ فهموا المعنى المقصود، وبادروا إلى تنفيذه.

ولما سأل الأعرابى النبى ﷺ عن الإسلام، فذكر له الصلوات الخمس وصوم رمضان، لم يسأله عن معنى الصوم، لأنه كان معلوما لديه، ولكن سأله: هل علىّ غيره؟

هذا الصوم الإسلامى هو أفضل أنواع الصيام، الذى عرفها البشر، فبعض أصحاب الأديان يصومون عن كل ذى روح فقط، ويأكلون ما لَذَّ وطاب من ألوان الطعام والشراب، كما لا يصومون عن شهوة الفرج.

وبعضهم يصوم صياما يمتد أياما، فيجهد البدن، ويشق على النفس، ولا يقدر عليه إلا الخاصة، أما الصيام الواجب فى الإسلام فهو لكل المسلمين المكلفين، خاصتهم وعامتهم.

## حكمة الصوم:

لم يشرع الإسلام شيئا إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وكما لا تخلو أفعال الله تعالى من حكمة فيما خلق، لا تخلو أحكامه سبحانه من حكمة فيما شرع. فهو حكيم فى خلقه، حكيم فى أمره، لا يخلق شيئا باطلا، ولا يشرع شيئا عبثا.

وهذا ينطبق على العبادات وعلى المعاملات جميعا، كما ينطبق على الواجبات والمحرمات أيضا.

إن الله تعالى غنى عن العالمين، وعباده جميعا هم الفقراء إليه، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة، كما لا تضره معصية، فالحكمة فى الطاعة عائدة إلى مصلحة المكلفين أنفسهم.

وفى الصيام حِكَم ومصالح كثيرة أشارت إليها نصوص الشرع ذاتها، منها:

١ – تزكية النفس بطاعة الله فيما أمر، والانتهاء عما نهى، وتدريبها على

كمال العبودية لله تعالى، ولو كان ذلك بحرمان النفس من شهواتها، والتحرر من مألوفاتها، ولو شاء لأكل أو شرب، أو جامع امرأته، ولم يعلم بذلك أحد ولكنه ترك ذلك لوجه الله وحده، وفى هذا جاء الحديث: «والذى نفسى بيده لخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى، كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به»(١).

٢ – أن الصيام، وإن كان فيه حفظ لصحة البدن – كما شهد بذلك الأطباء المختصون – ففيه أيضا: إعلاء للجانب الروحى على الجانب المادى فى الإنسان، فالإنسان – كما يصوره خلق آدم – ذو طبيعة مزدوجة، فيه عنصر الطين والحمأ المسنون، وفيه عنصر الروح الإلهى الذى نفخه الله فيه، عنصر يشده إلى أسفل، وآخر يجذبه إلى أعلى، فإذا تَغلَّب عنصر الطين هبط إلى حضيض الأنعام، أو كان أضل سبيلا، وإذا تغلب عنصر الروح ارتقى إلى أفق الملائكة، وفى الصيام انتصار للروح على المادة، وللعقل على الشهوة.

ولعل هذا سر الفرحة اليومية التى يجدها كل صائم كلما وفق إلى إتمام صوم يوم حتى يفطر، والتى عبر عنها الحديث النبوى: «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه»(٢).

٣ – يؤكد هذا أن الصوم تربية للإرادة وجهاد للنفس، وتعويد على الصبر، والثورة على المألوف، وهل الإنسان إلا إرادة؟ وهل الخير إلا إرادة؟ وهل الدين إلا صبر على الطاعة، أو صبر عن المعصية؟ والصيام يتمثل فيه الصبران.

ولا غَرْو أن سَمَّى النبى ﷺ شهر رمضان: (شهر الصبر)، وجاء فى الحديث: «صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر، يذهبن وَحَر الصدر»(٣).

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، اللؤلؤ والمرجان (٧٠٦).

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (٧٠٧).

(٣) رواه البزار عن على وابن عباس، والطبرانى والبغوى عن النمر بن تولب، كما فى صحيح الجامع الصغير (٣٨٠٤). ومعنى (وَحَر الصدر): أى غِشّه ووساوسه، وقيل: الحقد والغيظ وقيل غيره.

كما اعتبر النبى ﷺ «الصيام جُنَّة»[1] أى درعا واقية من الإثم فى الدنيا، ومن النار فى الآخرة، وفى الحديث: «الصيام جُنَّة من النار كجُنَّة أحدكم من القتال»[2]، «الصيام جُنَّة، وهو حصن من حصون المؤمن»[3].

٤ - ومن المتفق عليه أن الغريزة الجنسية من أخطر أسلحة الشيطان فى إغواء الإنسان، حتى اعتبرتها بعض المدارس النفسية هى المحرك الأساسى لكل سلوك بشرى والناظر إلى معسكر الحضارة الغربية اليوم، وما يعانى من انحلال وأمراض يتبين له أن انحراف هذه الغريزة كان وراء كثير من الأوحال التى يرتكس فيها.

وللصوم تأثيره فى كسر هذه الشهوة، وإعلاء هذه الغريزة، وخصوصا إذا دووم عليه ابتغاء مثوبة الله تعالى، ولهذا وصفه النبى ﷺ للشباب الذى لا يجد نفقات الزواج، حتى يغنيه الله من فضله، فقال:

«يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاء»[4]، والباءة: كناية عن النكاح، والوجاء: الخصاء، والمراد: أنه يضعف الشهوة إلى النساء.

٥ - ومن حكم الصوم: إشعار الصائم بنعمة الله تعالى عليه، فإن إلْف النعم يفقد الإنسان الإحساس بقيمتها، ولا يعرف مقدار النعمة إلا عند فقدها، وبضدها تتميز الأشياء.

فإنما يحس المرء بنعمة الشِّبَع والرِّىّ إذا جاع أو عطش، فإذا شبع بعد جوع، أو ارتوى بعد عطش، قال من أعماقه: الحمد لله، ودفعه ذلك إلى شكر نعمة الله عليه. وهذا ما أشير إليه فى حديث رواه أحمد والترمذى، قال فيه ﷺ: «عَرَضَ

---

(١) وردت هذه الجملة فى عدة أحاديث عن عدد من الصحابة منها: عن أبى هريرة فى الصحيحين.

(٢) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان عن عثمان بن أبى العاص، كما فى صحيح الجامع الصغير (٣٨٧٩).

(٣) رواه الطبرانى عن أبى أمامة، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٣٨٨١).

(٤) رواه البخارى عن ابن مسعود فى كتاب الصوم وغيره، ومسلم (١٤٠٠).

علىّ ربى ليجعلَ لى بطحاءَ مكة ذهبا، فقلت: لا يارب، ولكنى أشبع يوما، وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك!»[١].

٦ – وهناك حكمة اجتماعية للصيام (وخصوصا صيام رمضان): أنه – بِفَرْض الجوع إجباريا على كل الناس، وإن كانوا قادرين واجدين – يوجد نوعا من المساواة الإلزامية فى الحرمان، ويزرع فى أنفس الموسرين والواجدين الإحساس بآلام الفقراء والمحرومين. أو كما قال ابن القيم: يذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين.

وقال العلامة ابن الهمام: إنه لما ذاق ألم الجوع فى بعض الأوقات، ذكر من هذا حاله فى عموم الأوقات، فتسارع إليه الرقة عليه[٢].

وفى هذا التذكير العملى الذى يدوم شهرا، ما يدعو إلى التراحم والمواساة والتعاطف بين الأفراد والطبقات بعضهم وبعض، ولهذا رُوى فى بعض الأحاديث تسمية رمضان «شهر المواساة»[٣]، وكان النبى ﷺ فيه أجود بالخير من الريح المرسلة[٤].

ومن أجل هذا كان من أفضل ما يثاب عليه: تفطير الصائم، وفى الحديث: «من فطر صائما كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئا»[٥].

٧ – وجماع ذلك كله: أن الصيام يُعِدّ الإنسان لدرجة التقوى، والارتقاء فى منازل المتقين، يقول الإمام ابن القيم:

(وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن أبى أمامة، وحسنه السيوطى تبعا للترمذى، فاعترضه المناوى بأن فى سنده ثلاثة ضعفاء. (٢) فتح القدير (٢/ ٤٢).

(٣) روى ذلك من حديث سلمان عند ابن خزيمة فى صحيحه، وفى إسناده على بن زيد ابن جدعان. (٤) فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

(٥) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن زيد بن خالد، كما فى صحيح الجامع الصغير (٦٤١٥).

عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التى إذا استولت عليها، أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣][١].

والحق أن صيام رمضان مدرسة متميزة، يفتحها الإسلام كل عام، للتربية العملية على أعظم القيم، وأرفع المعانى، فمن اغتنمها وتعرض لنفحات ربه فيها، فأحسن الصيام كما أمره الله، ثم أحسن القيام كما شرعه رسول الله ﷺ، فقد نجح فى الامتحان، وخرج من هذا الموسم العظيم رابح التجارة، مبارك الصفقة، وأى ربح أعظم من نوال المغفرة والعتق من النار؟.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه.. ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (٢/٢٩).

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة.



obeikandl.com